الفصل السابع

هل هى إسرائيل الصغيرة الجسورة ؟ أم محمية القوة العظمى؟ (١) بريطانيا والمستعمرة الصهيونية فى فلسطين

غالبًا ما رسمت الدعاية الصهيونية الصراع من أجل إقامة دولة يهودية فى فلسطين فى صورة ما ورد فى العهد القديم عن داود وجالوت والصراع الخرافى بينهما كتعبير مجازى فى خلفية الصورة: شعب معزول مضطهد بطولى، يقاتل ضد أغراب مسيطرين من أجل الحصول على وطن له. وكان لا بد للنجاح أن يعتمد على اليهود وحدهم، أى على مبادرتهم وشجاعتهم المادية والأخلاقية. ومثل هذه النتيجة لن تكون شيئًا أقل من معجزة حديثة. إذ إن الاستقلال اليهودى والحرية اليهودية قد تحققت فى نهاية المطاف.

إنها أسطورة قوية مقنعة، بيد أنها كانت متصدعة بشكل أساسى فى جذورها وقد وضعت العمليات فى سلسلة منظمة، أخذت آلافًا من المستوطنين اليهودى إلى داخل فلسطين، وأعادت إنتاج نسخة حديثة من الاعتماد اليهودى على الحكم الفردى ـ وكذلك إنتاج أيديولوچيات يهودية أوتوقراطية حديثة ـ تحمل الكثير من خصائص العصور الوسطى بل والعصور القديمة. **ففى الماضى كان اليهود يبيعون خدماتهم للحكام فى مقابل حماية دينهم. وهم الآن يخدمون مصالح القوى العظمى فى مقابل حماية احتلالهم لأرض مملوكة لشعب آخر. وتطورت الأيديولوچية الصهيونية باعتبارها أيديولوچية أوتوقراطية متمايزة، على الأقل فيما يتعلق باستجاباتها لسكان فلسطين الأصليين.**

ويكشف هذا الفصل بالتفصيل كيف أن بريطانيا كانت قد صارت القوة العظمى الأولى التى قامت رسميًا بالمصادقة والتطبيق بتبنى الزعم اليهودى فى فلسطين وكيف

توقعت أن تستفيد فى المقابل. إذ إن الطموح الإمبريالى الخالص اختلط بتيارات تحتية قوية ومزعجة من مشاعر معاداة السامية فى عقول حكام بريطانيا عندما بدأوا يحتضنون العقيدة الصهيونية أثناء الحرب العالمية الأولى. ولم تكن تلك بداية جذابة لحركة «العودة إلى صهيون» الشهيرة جداً، إعادة مولد الشعب اليهودى التى طال انتظارها فى أرض أصولهم كما زعموا. وعلاوة على ذلك، كانت تلك بداية سوف تخلف للأبد لعنة وجُرحا فى سياسات الصهيونية، لقد كانت علامة على أنها جاءت إلى فلسطين باعتبارها سياسات اضطهاد.

وينتهى الفصل بتأكيد تاريخى لهذا الفرض: الانتفاضة الوطنية الفلسطينية العظمى، الانتفاضة الأولى، وهى حركة تقليدية معادية للإمبريالية والاستعمار، كشفت بحدة شديدة عن أن البريطانيين والصهاينة كانوا مستعمرين يمارسون القهر والاضطهاد.

وهناك فصل لاحق سوف يكشف ما حدث عندما حلت الولايات المتحدة محل بريطانيا كراع، وبدأت تستغل دولة إسرائيل التى تم اختلاقها حديثًا لكى تتابع الخطط الإمبريالية. وقد أدى هذا إلى توسيع الصهيونية باعتبارها سياسات اضطهاد وقهر لدرجة أنها كانت عند بداية القرن الحادى والعشرين، تترنح من الإدانة ضدها على اتساع العالم.

كيف أعلنت بريطانيا ـ لصالح الصهيونية ـ وعد بلفور؟

كان تيودور هرتزل يجادل دائمًا بأن خلق مستعمرة صهيونية فى فلسطين سوف يحتاج إلى مساندة قوة عظمى. فى مرحلة حرجة أثناء الحرب العالمية الأولى، أقنع حكام بريطانيا أنفسهم أن هذه قضية لهم. بطبيعة الحال قضية من أسمى درجات النبالة والشرف، سواء من الناحية السياسية أو حتى من الناحية الروحية، كانت قضية تتماشى تمامًا مع أولئك الذين كانوا يطمحون إلى حكم أعظم إمبراطورية شهدها العالم. كما كانت لها أيضًا جدارة أنها يمكن فى الوقت نفسه أن تساعد الجهود الحربية للحلفاء وكذلك تضمن فلسطين للإمبراطورية البريطانية عندما تضع الحرب أوزارها. **بل إن بعضًا ممن يحملون أشهر الأسماء فى التاريخ الإمبريالى فى القرن العشرين، مثل:** داڤيد

لويد چورچ، وونستون تشرشل، وآرثر بلفور، أعلنوا أنهم اعتنقوا الصهيونية. ومن الغريب أن هؤلاء الرجال أنفسهم معروفين أيضًا باتخاذهم أقصى المواقف غرابة، بل وانحطاطًا، فى معاداة اليهود. فكيف يمكن أن نفسر هذا التطور المحير المربك؟

إننا بحاجة إلى أن نستوعب تمامًا التقاليد الإمپريالية البريطانية، أو على الأقل نعى حالتها. لم يقترب أحد من هذا بقدر ما فعل الشاعر پيرسى شيللى. إذ كان قد سطر قصيدة عنوانها «قناع الفوضى Mask of Anarchy» قبل مائة سنة عن بعض رجال الدولة المشهورين فى التاريخ الإمپريالى أوائل القرن التاسع عشر:

قابلت الاغتيال فى الطريق

كان له وجه يشبه كاسلرياج

كان يبدو ناعمًا للغاية ولكنه عابس:

كانت تتبعه سبعة كلاب بوليسية

ثم جاء التدليس والغش، وكان

مثل إلدون، يرتدى ثوبًا محلًى بالفراء

وكانت دموعه الكثيرة، لأنه يبكى جيدًا

تتحول إلى أحجار رحى الطاحونة وهى تتساقط.

يرتدى الكتاب المقدس، وكذلك النور

وظلال الليل

مثل سيدماوث، جاء النفاق بعده

راكبًا على تمساح.

والمزيد المزيد من الدمار لعبوا

فى هذه المسخرة الفظيعة

كلهم تنكروا حتى عيونهم

مثل الأساقفة، والمحامين، أو النبلاء، أو الجواسيس

(مختصرة)[١]

كان أحد أشهر اللاعبين الإمپرياليين الصغار من حيث سوء السمعة، هو الدمار، إذا كان هناك بالفعل من يحمل هذا الاسم خلال الحرب العالمية الأولى، فهو مارك سايكس الذى كان ديپلوماسيًا ارستقراطيًا، من كبار حزب المحافظين، مكلفًا بمهام متعددة، من أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكيةومعاديًا فظًا للسامية. وكان ومعه چورچ پيكو نظيره فى فرنسا، حليف انجلترا الرئيسى فى «آلة الموت»، كما وصف إريك هوبسباوم (١٩٩٤) للحرب العالمية الأولى، قد وجه عينيه الجشعتين إلى شرق المتوسط (الشرق الأوسط) بما فيه فلسطين بطبيعة الحال. كانت الإمبراطورية العثمانية تترنح، وسرعان ما ستكون عرضة للاغتصاب والنهب. وفى سنة ١٩١٦م، تقابل سايكس وپيكو نيابة عن دولتيهما الإمپرياليتين (انجلترا وفرنسا)، لكى يعكفا على دراسة سقوطها والنظر فى توزيع غنائم الحرب. وتذكر عبارات سايكس:

«كان من الواضح أن انتفاضة عربية ستحدث إن عاجلاً أو آجلاً، وأن الفرنسيين ونحن ينبغى لنا أن نكون فى أفضل وضع إذا ما كان للانتفاضة أن لا تكون لعنة بدلاً من أن تكون نعمة» (Said 1995: 221).

وقد صار سايكس أيضًا متعاطفًا مع الصهيونية. ففى غضون سنة واحدة سوف تُلزم وزارة الحرب الإمبراطورية برمتها نفسها بالصهيونية وتنشر إعلان بلفور الشهير، وهو تصريح آرثر بلفور، نيابة عن الحكومة البريطانية، الذى ضمن وطنًا قوميًا لليهود فى فلسطين.

ولدينا شاهد خاص جدًا على هذا التحول الممسوخ الغريب هو حاييم وايزمان. كان

وايزمان خليفة هرتزل بالأمر الواقع، على الأقل من حيث ما يتعلق بتحسين القضية الصهيونية فى بريطانيا. ولأنه كان مهاجرًا يهوديًا من روسيا، وعالمًا متمرسًا، فعندما اندلعت الحرب كان وايزمان يعمل خبير مفرقعات لصالح الحكومة البريطانية. أليس مناسبًا تمامًا أن الرجل الذى ساعد على تحويل وزارة الحرب الإمبراطورية إلى الصهيونية كان هو الرجل الذى استخدمته هذه الوزارة لتحسين كفاءة آلتها القاتلة؟ الواقع أن لويد جورج قد تهكم مرة على سبيل المداعبة قائلا: "إن إعلان بلفور كان هديته إلى وايزمان مقابل خدماته للمجهود الحربى (Segev 2000: 43-4). ومع هذا فإن اندور الأكثر فعالية الذى لعبه وايزمان، كان هو الخضوع لانحيازات وزارة الحرب الإمبراطورية والطريقة القبيحة التى كانت تحكم بها على ما يسمى أحيانًا «المسألة اليهودية».

يا لها من عصابة! الصهاينة الإمبرياليون البريطانيون

رقم (١) ديفيد لويد جورج

عندما صار لويد جورج رئيسًا للوزراء فى نهاية سنة ١٩١٦م، أعاد تأكيد تفكيك الإمبراطورية العثمانية باعتبار ذلك «هدفًا رئيسيًا من أهداف الحرب» (Vital 1987: 209). وقد أصرَّ أيضًا على أن يحتل البريطانيون فلسطين. وكان هذا خرقًا فاضحًا لاتفاق «سايكس ـ بيكو»، الذى كان قد وعد فرنسا بنصيب كبير فى فلسطين. وكان يدعمه س. ب. سكوت محرر «المانشستر جارديان» وأحد أقوى مؤيدى لويد. وقبل أن يتولى لويد جورج المنصب مباشرة، كان مراسل الصحيفة الحربى قد كتب: «إن مستقبل الإمبراطورية البريطانية كله باعتبارها إمبراطورية بحرية» يعتمد على أن تصير فلسطين دولة حاجزة «يسكنها جنس محب لوطنه بدرجة كبيرة» (Fromkin 1989: 271). وقد تطابق هذا مع رؤية وايزمان ومؤداها: «أن فلسطين يهودية ستكون ضمان أمن لانجلترا، ولا سيما بالنسبة لقناة السويس» (Weinstock 1979: 69) كان سكوت قد عرف عن الصهيونية وعن احتمالاتها المزعومة من وايزمان.

والتقارير العاطفية عن صهيونية لويد جورج تشدد دائما على ارتباطه بالكتاب

المقدس. **وقد قيل إنه كان مؤمنًا صحيح الإيمان بإعادة اليهود إلى صهيون بفلسطين (Fromkin 1989: 268) فى ذلك التراث البروتستانتى المحب للسامية.** بيد أنه كان هناك أيضًا موقف أشد ظلامًا وشؤمًا. إذ كانت لديه رؤية طنانة بشكل مشوه عن «القوة اليهودية»، لدرجة أنها قادته إلى الرأى القائل بأن يهود روسيا كان يمكنهم منع البلاد من الانسحاب من المجهود الحربى المتحالف فى السنة التى اندلعت فيها الثورة الروسية، سنة ١٩١٧م. وهناك حجة تبدو مقنعة، سوف نتفحصها فيما بعد، بأن هذا هو ما حسم توقيت إعلان بلفور، وليس حقيقته. لقد أشار لويد چورج إلى «الجنس اليهودى» و«يهود العالم» وإلى «الصهاينة» كما لو كانوا هم نفس الشىء الذى تدل عليه هذه العبارات كلها، وبذل وايزمان ما فى وسعه لكى يشجع مثل هذه الرؤية (Seveg 2000: 42). وربما كانت لدى هربرت أسكويث، رئيس الوزراء البريطانى السابق على چورچ لويد، أصدق رؤية لخليفته. إذ إن أسكويث لاحظ أن «لويد چورج لا يهتم ألبتة باليهود أو ماضيهم أو مستقبلهم» ولكنه كان يهتم فعلاً بفلسطين (Vital 1987: 233).

رقم (٢) آرثر بلفور

كان بلفور رجل الدولة الذى وقع على الإعلان الشهير، أيضًا ورئيس وزراء فى زمن مرسوم الأجانب Aliens Act سنة ١٩٠٥م غير المشهور. وقد أدى هذ التشريع إلى إغلاق الباب تمامًا فى وجه المهاجرين من يهود أوروبا الشرقية الذين فروا من موجات المذابح التى جرت فى الإمبراطورية الروسية. وكان بلفور يتابع بنفسه المرسوم فى مجلس العموم. ومع هذا، فإنه أصرَّ على أنه كان معارضًا شرسًا لمعاداة السامية. بل إن جريدة Jewish Chronicle، التى كانت آنذاك مثل اليوم تعلق بتحفظ على الشئون العامة، عبرت عن دهشتها عن هذا النفاق المذهل (Stein 1961: 149-50)[٢]. ولم تكن الكلمة المؤلفة من الحروف الأولى لعبارة «لا تلعب فى فنائى الخلفى» NIMBY(Not In My Back Yard) قد صُكَّت بعد، ولكنها تناسب موقف بلفور تمامًا. إذ لم يكن اليهود يلقون الترحيب فى الفناء الخلفى لبريطانيا، ولكن كان على بريطانيا أن ترحب بهم فى الحديقة الأمامية لعرب فلسطين، بموافقة العرب أو بدون موافقتهم.

فى الحقيقة، كان بلفور قد اعترف لوايزمان نفسه بتعاطفه مع معاداة اليهود. إذ كان قد أخبر وايزمان عن حوارات جرت بينه وبين كوسيما ڤاجنر، أرملة الموسيقار الألمانى الشهير الذى كان معاديًا صريحًا لليهود، ريتشارد ڤاجنر. **بيد أن الصهاينة شاركوا أيضًا فى «معاداة السامية الثقافية» كما أكد وايزمان لبلفور. إذ اعتقد الصهاينة كذلك أن أولئك اليهود الألمان الذين عرفوا أنفسهم بأنهم ألمان «يؤمنون بالعقيدة الموسوية» (أى أنهم ألمان بالقومية يهود بالديانة) كانوا يشكلون «ظاهرة غير مرغوبة تحط من الروح المعنوية»** (Seveg 2000: 41).

كان بلفور تلخيصًا ورمزًا لذلك التيار المعادى للسامية فى الفكر الإمپريالى البريطانى الذى تحالف مع الصهيونية بعد ذلك. ولم يكن ذلك التيار يحب اليهود الحقيقيين الذين شاهدهم وكذلك لم يكن الزعماء الصهاينة يحبونهم. لقد وافقت الإمپريالية البريطانية على المفهوم الصهيونى بإعادة تنظيم الحياة اليهودية بحيث تناسب النسخة الفجة لإعادة بعث يهود العهد القديم فى ثياب جديدة. وهنا كانت تجربة رومانسية مثيرة حقًا بالنسبة للإمبراطورية البريطانية لإحياء الاستمرارية فى الحضارة الغربية، التى كانت على أية حال تضرب بجذورها فى التراث اليهودى ـ المسيحى، وفى الوقت نفسه تقوى وجودها فى العالم العربى. كانت لها بشأنها خاصية أخلاقية وروحية فريدة على مستوى فكرى لا يمكن أن تصل إليه العقلية العربية ببساطة. وقد لاحظ چورج أنطونيوس، وهو عربى مسيحى فلسطينى بارز يقيم بالقدس، فى لمحة ذكية أن بلفور رأى فلسطين باعتبارها «تمرين تاريخى ـ فكرى وتسلية». وكان على بلفور نفسه أن يقول «إن الصهيونية سواء كانت على صواب أو على خطأ... ذات أهمية أعمق كثيرًا من رغبات السبعمائة ألف عربى الذين يعيشون فى الأرض العتيقة وانحيازاتهم» (Seveg 2000: 45).

رقم (٣) ونستون تشرشل

فكرة أن الصهيونية قد تعيد تنظيم الحياة اليهودية كانت لها جاذبية خاصة بالنسبة لونستون تشرشل، الذى صار وزير المستعمرات بعد الحرب ومن ثم صار الوزير

المسئول مباشرة عن تطبيق إعلان بلفور. **وكان تشرشل غاية فى الإنزعاج من الثورة الروسية، كما كان على اقتناع بأن «اليهودى العالمى» كان وراءها.** وسمى البلاشفة «ميكروب»؛ وهو تعبير يطلق كثيراً على اليهود فى المنشورات المعادية لهم. وهذا يعزز قناعاته الصهيونية. إذ كان يعتقد أن الصهاينة «سوف يوفرون الترياق المضاد لهذه المؤامرة المنحوسة ويحققون الاستقرار بدلاً من الفوضى فى العالم الغربى» (Seveg 2000: 158).

وكان يمكن لبريطانيا أن تسدى معروفًا للعالم وتوقف الاتجاهات الهدامة لدى يهود روسيا بأن تقدم لهم وطنًا قوميًا فى فلسطين، التى كانت آنذاك جزءاً من الإمبراطورية البريطانية. ووفقا لما كتب قبل أن يتولى وزارة المستعمرات مباشرة سنة ١٩٢٠م:

«إذا ما كان من الممكن والوارد حدوثه، ينبغى أن نخلق فى حياتنا دولة يهودية على ضفاف نهر الأردن تحت حماية التاج البريطانى.. وهو حدث كان لا بد أن يشهده تاريخ العالم، سيكون من كافة النواحى مفيداً ومنسجمًا على نحو خاص مع مصالح الإمبراطورية البريطانية» (Fromkin 1989: 519).

حتى وايزمان كان مندهشًا من استعداد تشرشل لتشجيع الصهاينة. إذ إن وايزمان اعترف ذات مرة لوزير المستعمرات الجديد أن الصهاينة كانوا يهربون الأسلحة إلى داخل فلسطين رداً على العداء العربى المتصاعد. وأخبره تشرشل: **«نحن لا نهتم، ولكن لاتتحدث عن هذا»** (Seveg 2000: 194).

رقم (٤) مارك سايكس

إن تحول سايكس من عدو لليهود إلى صهيونى يمثل دراسة حالة واضحة لهذه الظاهرة المشبوهة. كان سايكس ينفر من اليهود. فقد كان اليهودى هو **«النمط العتيق من المرابى العالمى.. جشع، همه جمع المال ولا جذور له، ويستحقون الاحتقار عن جدارة عندما يحاولون أن يظهروا بمظهر آخر»**. بل إنه فى شبابه رسم «أنماطًا يهودية شنيعة» (Stein 1961: 272). ومع هذا فإن سايكس سوف يصير مرتبطًا بالصهيونية

ويرى فيها تجربة اجتماعية عظمى. فقد أخبر البابا سنة ١٩١٧م أنها سوف ترفع «احترام الذات العرقى لدى الشعب اليهودى» وسوف تنتج «سكانًا بسطاء مزارعين يتحلون بالفضيلة» فى فلسطين. (Stein 1961: 275). وعلى أية حال فإن هذا لم يكن يعنى أن سايكس لم يكن معاديًا لليهود. بل على العكس، كان يرى فى الصهيونية المعادل للمال اليهودى العالمى، والذى كان يعتقد أنه يساند المجهود الحربى الألمانى (Stein 1961: 276) وكان مثل تشرشل من حيث إنه كان يرى أيضًا أن الصهيونية تستطيع مواجهة العناصر اليهودية الدولية الهدامة، ممن كانوا يرون فى «كارل ماركس النبى الأوحد لإسرائيل» (Stein 1961: 275). إذ كان يمكن لهذه العناصر الهدامة أن تدمر المجهود الحربى أيضًا لأنهم كانوا قادرين على سحب روسيا من الحرب كما يعتقد.

لقد كان سايكس يمثل وجهة النظر الإمبريالية البريطانية، بشكل مكثف، والقائلة أن الصهيونية تستطيع إصلاح سلوك «يهود العالم»، وتضمن مساندة «يهود العالم» للمجهود الحربى للحلفاء؛ وضمان فلسطين للإمبراطورية البريطانية بعد الحرب.

وفى الحقيقة، كان الافتراضان الأخيران هما اللذان يهمان أكثر من غيرهما. فعلى أساس هذين الافتراضين كان تشجيع لويد جورج على انتهاك الاتفاقية التى كان قد توصل إليها مع جورج بيكو. وكان على سايكس أن يلعب «بالورقة الصهيونية» لكى يرهب الفرنسيين حتى يسقطوا دعاواهم بشأن فلسطين. ولكن قبل أن نتحول إلى تصرفات لويد جورج وسايكس الهزلية الخسيسة، يجب أولاً أن نعرض باختصار وجهة نظر أخرى مشرفة ومنسية، وهى رؤية يهودية بريطانية ضد الصهيونية.

«معاداة السامية لدى الحكومة الحالية»

كان هذا عنوان ورقة وزارية كتبها إدوين لمونتاجو فى أغسطس ١٩١٧م. (Vital 1987: 282). وإذ كان مونتاجو قد عُين حديثًا وزيرًا لشئون الهند، كان من الصعب اتهامه بأنه لا يحمل فى قلبه مصالح الإمبراطورية البريطانية. وعلى أية حال، فعلى الرغم من أنه كان اليهودى الوحيد فى الوزارة البريطانية، ومن ثم كان يجب أخذ آرائه مأخذ الجد، وبمصادفة غريبة من القدر، كان ابن عمه هربرت صمويل، أول يهودى

يخدم فى وزارة بريطانية، قد خرج لتوه من الوزارة. كان صمويل صهيونيًا وفيًا، وبذلك قوَّض أية مزاعم كان يمكن لمونتاجو أن يزعمها بأنه ـ لا الصهاينة ـ كان يمثل المصالح الحقيقية للجماعة اليهودية فى بريطانيا[٣]. ومع هذا، فإن قوة حجة مونتاجو لمست وترًا حساسًا. ألن تخلق الصهيونية هويتين قوميتين لليهود؟ ألن يشجع هذا المعادين لليهود فى كل مكان على المناداة بإخراج اليهود وترحيلهم إلى فلسطين؟ ألم يكن معنى هذا أن فلسطين سوف تصير جيتو يهوديًا حديثًا؟ ألن تقوم الصهيونية نفسها، بعيدًا عن تهدئة نزعة معاداة اليهود، بتزكيتها دونما قصد؟[٤]

وكما لاحظ سجيف، كان هذا بالضبط ما تريده الصهيونية «إن أعداء اليهود، سيكونون أشد أصدقائنا إخلاصًا، والدول المعادية لليهود ستكون حلفاءنا». هذا ما كان هرتزل قد دونه فى يومياته (Segev 2000: 47).

وما يلفت النظر هو كيفية حذق استجابة وزارة الحرب، التى كانت فى ذلك الحين ملتزمة تمامًا بالقضية الصهيونية. فقد ذهبوا شوطًا بعيدًا لإقناع مونتاجو بأنه كان على خطأ. وتم تخصيص ورقة من وزارة الخارجية لتفنيد آراء مونتاجو نقطة بنقطة. كان بلفور، من بين الجميع، هو الذى قاد مناقشات وزارة الحرب مصرًا على أن استيعاب اليهود فى بريطانيا أو أى مكان آخر لا ينبغى أن يتأثر. لقد كان ذلك مقياسًا لمدى كيفية التزام وزارة الحرب آنذاك بالصهيونية، وتم تغافل التحدى الذى طرحه مونتاجو (Vital 1987: 280-6).

إبعاد فرنسا عن فلسطين

«المؤامرة الصهيونية» التى دبرها لويد جورج وسايكس

إن «الصهاينة ربما يكونون حلفاء مفيدين فى جهود خرق الاتفاقية الأنجلو ـ فرنسية وكانوا بالتأكيد السبب الرئيسى فى إعادة ظهور فكرة فلسطين على أجندة الحكومة» فى الشهور الباكرة من سنة ١٩١٧م. (Vital 1987: 213). وڤيتال، الذى كان قد أولى اهتمامًا عميقًا لهذه المرحلة من ارتباط وزارة الحرب بالصهيونية، يختار كلماته بعناية «استخدام الصهاينة بهذه الطريقة كان أمرًا طيبًا بالنسبة للناس (ومنهم كيرزون. . .) الذى لم يكن يحمل أى تعاطف خاص لقضيتهم أو لليهود عمومًا

(Vital 1987: 214)[٥]. وهنا نرى العلاقة بين حكام الإمبراطورية البريطانية والصهيونية كما هى بالضبط. وكان للصهيونية أن تلعب دور «الأداة» المفيدة والموثوق بها، عارية من أى تعاطف، لكى تعزز المصالح البريطانية (Vital 1987: 222).

والواقع أنه بينما تم استدراج زعماء الصهاينة فى المؤامرة لخرق المعاهدة الأنجلو-فرنسية، جرت تعميتهم بشأن المقاصد الحقيقية. وعلى أية حال، كانت الاتفاقية سراً من أسرار زمن الحرب، لتقسيم غنائم الحرب قبل وقت طويل من الانتصار فى الحرب فعلاً، وعلى كل حال، فإن الاعتبارات الصهيونية لم تكن واردة فيها على الإطلاق (Vital 1987: 202)؛ ولم يكن هذا شيئًا يهم سايكس وبيكو بأن يدعيا الصهاينة يدركونه. بيد أن الموقف آنذاك كان مختلفًا تمام الاختلاف. ذلك أن التطلعات الصهيونية لم تصبح «مفيدة» فجأة فحسب، بل كان لا بد من تشجيعها بصورة نشيطة. وحصل سايكس على الدعم الكامل من لويد چورچ عندما جعل الصهاينة «يلتهبون» على حد تعبيره (Vital 1987: 224). كانت تلك لحظة حاسمة للصهيونية فى بريطانيا. إذ تحولت وضعيتهم بين عشية وضحاها، و صاروا آنذاك هم المفضلين فى عيون الحكومة. واضطر الزعماء التقليديون لليهود الإنجليز، بسبب شكوكهم فى خطط الصهيونية، إلى الجلوس فى المقاعد الخلفية. ووفقًا لرواية وايزمان، صار الصهاينة آنذاك أقرب إلى «قلب الموضوع» عن ذى قبل (Vital 1987: 238). وتم دعوتهم إلى اجتماع خاص حيث ألقى سايكس محاضرة على مسامع الصهاينة فى السياسة الفرنسية. وقد أعرب عن تعاطفه مع فكرة «فلسطين يهودية»، ولكنه قال إن اليهود كانوا يضعون العراقيل فى الطريق، فقد كانوا بحاجة إلى الاقتناع بحرارة الصهيونية ومزاياها. ومن الذى يمكن أن يفعل هذا أحسن من الصهاينة أنفسهم (Vital 1987: 238-40).

وتم الاتفاق على أنه يجب أن يقوم ناحوم سوكولوف، وهو زعيم صهيونى من روسيا، بعرض القضية على الفرنسيين. وهكذا نُصب الفخ للفرنسيين، دون أن يفهم الصهاينة تمامًا القصد الحقيقى منه. وتأثر الفرنسيون بقضية الصهيونية. فقد قابل سوكولوف بيكو وغيره من كبار الموظفين الرسميين الفرنسيين على مدى عدة أسابيع.

ولكن عندما قدم الفرنسيون عرضهم الواضح بأنهم قد يكونون على استعداد لرعاية مستعمرة صهيونية عندما تحتل فرنسا فلسطين، أوضح سوكولوف أن الرعاية البريطانية هى المفضلة. وبعبارة أخرى، بدأ الفرنسيون يدركون أن الصهيونية جاءت كجزء من صورة أوسع وأن الرعاية البريطانية للمشروع قد بدأت بالفعل. وإذا ما وضعنا فى الاعتبار أن الإنجليز كانوا الأقدر على الاستيلاء عسكريًا على فلسطين وليس ا لفرنسيين سندرك كيف وجد الفرنسيون أنفسهم فى موقف ضعيف. وحينئذ قابل سايكس بيكو مرة أخرى لكى يؤكد على «أهمية الاستجابة للمطالب اليهودية» ولكى يحقق فحوى تفضيل الصهاينة «للسيادة البريطانية» (Vital 1987: 243).

وكان سايكس مسروراً من نفسه لأسباب مفهومة. فقد كتب إلى بلفور: «فيما يتعلق بالصهيونية، بدأ الفرنسيون يدركون أنهم فى مواجهة أمر كبير ولا يمكنهم أن يغمضوا عيونهم عنه» (Vital 1987: 244).

ومع هذا، لماذا رأى كل من البريطانيين والفرنسيين فى الصهيونية شيئًا كبيراً؟. فى إحدى نقاط المناقشة بين بيكو وسولوكوف، جادل بيكو بأنه «سيكون مفيداً جداً لقضيتهم أن يجعل اليهود إخلاصهم للوفاق (بين فرنسا وبريطانيا) أكثر وضوحًا» (Vital 1987: 241).

يبدو أن الصهيونية كانت فى عيون الحلفاء تحمل شيئًا أكبر من مجرد مزاعمها فى فلسطين.

الصهيونية: «الشىء الكبير»

فى مذكراته عن الحرب كتب لويد چورچ:

«لقد أصبح اليهود الروس الوكلاء الرئيسيين للدعاية السلمية الألمانية فى روسيا. فبحلول سنة ١٩١٧م كان اليهود الروس قد قطعوا شوطًا كبيراً فى التجهيز للتفكيك العام للمجتمع الروسى... إذ كان الاعتقاد سائداً بأنه إذا أعلنت بريطانيا العظمى عن تحقيق الأهداف الصهيونية فى فلسطين... فإن تأثير ذلك سوف يكون مؤازرة اليهود الروس للوفاق» (Leven 1992: 6-70).

والواقع أن سقوط القيصر نيقولاس فى فبراير سنة ١٩١٧م كان قد زاد من احتمال انسحاب روسيا من المجهود الحربى للحلفاء. ولكن فكرة أن يهود روسيا كانوا هم المسئولين فى النهاية، وأنهم ربما يقتنعون بإبقاء روسيا فى الحرب إذا ما تم الإذعان للأهداف الصهيونية، فكرة معاكسة تمامًا. ومع هذا فإننا قد رأينا بالفعل أن بعض هذه الأفكار وردت على لسان زملاء لويد چورچ فى الحرب. كما أنها كانت رؤية تتبناها قطاعات من المؤسسة العسكرية البريطانية. ذلك أن چنرال، سير چورچ ماكمون والكابتن سيريل فولز فى كتابهم عن تاريخ الحرب العالمية الأولى زعما أن الضغط الذى لا يقاوم لحاجات الحلفاء، والقوة العالمية للجنس اليهودى، جعلوا من المرغوب الاعتراف بتطلعات اليهود نحو «وطن قومى» فى فلسطين» (Vital 1987: 297).

لقد عمل وايزمان طويلاً وبدأب لتشجيع مثل تلك الرؤية. إذ جمع أجزاء فانتازيا سياسية عن اليهود فى الثورة الروَسية والتأثير الذى يمكن أن يكون لهم على المجهود الحربى لكل من الألمان والحلفاء على السواء. لقد كانت فانتازيا لعبت مباشرة على الانحيازات اللاسامية فى وزارة الحرب الإمبراطورية التى كانت مهمومة بما يسمى «القوة اليهودية».

وكما ذكر وايزمان، كان اليهود الروس فى تلك الآونة يتجمعون لدعم القضية الصهيونية. وهو يزعم هذا الزعم على الرغم من حقيقة أن الإطاحة بنظام القيصر كان يعنى أنه، ـ للمرة الأولى فى روسيا ـ كان التحرير الكامل لليهود قد بات احتمالاً حقيقيًا، يُعززه التزام واضح من كل الأحزاب الثورية الروسية.

ومرة أخرى، زعم وايزمان أن صهاينة روسيا كانت بحوزتهم القوة على تجنيد يهود روسيا وراء المجهود الحربى للحلفاء، على الرغم من اعترافه بشكل خاص بالصعوبة التى كان يواجهها فى إقناع صهاينة روسيا بالكف عن سياسة «الحياد» التى اتبعوها إزاء الحرب. (Levene 1992 b: 74). وأخيرًا تحدث وايزمان على نطاق واسع عن كيف أن إعلانًا لصالح الصهيونية سوف يكون دافعًا إلى «الصداقة مع يهود العالم. . وهو شىء لا يجب التضحية به. . شىء يهم إلى درجة كبيرة، حتى بالنسبة لإمبراطورية شديدة البأس مثل الإمبراطورية البريطانية (Levene 1992 b: 73)[٦]. لقد كان وايزمان يلعب على خوف محدد تمامًا. إذ كانت ألمانيا تحتل پولندا وأجزاء من ليتوانيا، وأجزاء من

شرق أوروبا، كما أن ألمانيا كانت قد بدأت تعطى وعوداً حول فلسطين يهودية. وكان من الأفضل لبريطانيا أن يكون لها قصب السبق.

وسرعان ما سيؤدى التاريخ نفسه إلى تفجير فقاعة الفانتازيا حول القوة الصهيونية فى التأثير على المساندة اليهودية للمجهود الحربى للحلفاء. وفى مفارقة ساخرة مدهشة، حدث فى نفس الأسبوع الذى نُشر فيه إعلان بلفور فى أكتوبر ١٩١٧م أن استولى البلاشفة على السلطة فى روسيا وسحبوا البلاد خارج الحرب. وبُهت أصحاب نظرية المؤامرة اليهودية فى كل مكان. فقد كان المفترض، فى النهاية، أن يقوم اليهود بإبقاء روسيا فى الحرب، بما أن الحلفاء قد وعدوهم بوطن يهودى فى فلسطين. ومع ذلك، فإن رضاءنا برؤية مدى السهولة التى تمت بها السخرية من أصحاب نظرية المؤامرة ودارت بهم الدوائر، ينبغى أن نكبحه بمدى عمق اللاسامية التى تم الكشف عنها. فقد أشار ليڤنى إلى ملاحظات فى بداية المجلد الرابع من كتاب ليون بولياكوف The History of Antisemitism فحواها أن الهوس الذى استحوذ على المجتمع الراقى فى أوروبا أوائل القرن العشرين بشأن اليهود، قد اختفى فى زوايا النسيان بدرجة كبيرة (Levene 1992 b: 76) بيد أن هذاالهوس لعب دوراً فى فرض المستعمرة الصهيونية على الفلسطينيين: وهو هوس معاد لليهود فى جوهره، ولم يكن لدى الزعماء الصهاينة اليهود أية رغبة فى تحديه.

إمپريالى، عنصرى وصهيونى
تشرشل بين اليهود والعرب فى فلسطين

صار تشرشل وزير المستعمرات فى فبراير ١٩٢١م، وحمل المسئولية المباشرة فى الشرق الأوسط. وفى غضون ثلاثة أشهر اندلعت أخطر الاحتجاجات العربية ضد الصهيونية حتى ذلك الحين فى شتى أنحاء فلسطين (Fromkin 19891: 515) وقد رد هربرت صمويل، الذى كان هو اليهودى الصهيونى الوحيد فى وزارة الحرب قبل ذلك، والذى كان آنذاك هو المندوب السامى البريطانى فى فلسطين، بإيقاف أية هجرات يهودية جديدة. وقد أدى هذا إلى نشوب أزمة كبرى بالنسبة للصهيونية وهدد بتقويض الأسس التى قام عليها إعلان بلفور نفسه. وسوف يتهم بن جوريون صمويل بأنه «خائن» (Segev 2000: 492). (وكان على تشرشل أن يصلح ما فعله صمويل).

وقد أوضح تشرشل أنه لم يكن هناك أى قصد للارتداد عن إعلان بلفور. وكان قد أخبر وفدًا عربيًا فلسطينيًا فى القاهرة أن الصهيونية «جيدة للعالم، وجيدة لليهود، وجيدة للإمبراطورية البريطانية، بل أيضًا جيدة للعرب» (Fromkin 1989: 519). وفى أعقاب أعمال الشغب الاحتجاجية، فى صيف سنة ١٩٢١م، كرر نفس الملاحظة لوفد عربى فلسطينى فى لندن: «إن الحكومة البريطانية تقصد أن تنفذ وعد بلفور. لقد أخبرتكم مرات ومرات». (Fromkin 1989: 524). وسرعان ما استؤنفت الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

وفى الممارسة، كان تشرشل يكنُّ احتقارًا عميقًا للعرب. فقد كان مستشاره الرئيسى فى «الشئون العربية» العميل العسكرى البريطانى الأسطورى «لورنس العرب». وأحيانًا تخلق الأسطورة الانطباع بأن هناك محبة بريطانية عميقة لكل ما هو عربى. وعلى مدى السنين كان هناك كلام كثير عن «المستعربين» فى وزارة الخارجية بزعم أنهم ورثة تراث لورنس، وأنهم على استعداد دائم لتقويض الالتزام الكامل من جانب بريطانيا تجاه الصهيونية. بيد أن هذا يكشف عن سوء فهم عميق للورنس «والاستعراب البريطانى». ففى أحد المعانى كان «الاستعراب البريطانى» يشبه نظيره الإمبريالى «الصهيونية البريطانية». ذلك أن الطبقات الإنجليزية الحاكمة تشعوذت بأن ابتدعت نمطًا لـ «العربى» بنفس الطريقة التى اختلقوا به نمطًا مثاليًا لـ «اليهودى». لقد كان اليهودى المثالى «يهوديًا جديدًا»، من نوعية متفوقة، من نفس نوع الرجل الذى يساعد على حكم الإمبراطورية. ولكن العربى النموذجى كان هو الصورة الاستشراقية التى قدمها بدوى الصحراء فى شبه الجزيرة العربية، «عربى قديم» ممن يظهرون فى حكايات «ألف ليلة وليلة»، سريع البديهة ومنكر لذاته، وعلى النقيض من ذلك، كان العرب الفلسطينيون، من وجهة نظر لورنس «بلهاء، ماديين.. فقراء مدقعين» (Cohen 1985: 77). والحقيقة، كان ثمة شك فى كونهم عربًا أصلاً. وكتب جلبرت كلايتون، أول رئيس للإدراة العسكرية البريطانية فى فلسطين بعد الحرب مباشرة، أن العرب الفلسطينيين كانوا «من أعراق مختلطة وهويتهم محل تساؤل... ومن يطلق عليهم اسم عرب فلسطين لا يمكن مقارنتهم بعرب الصحراء الحقيقيين» (Cohen 1985: 77).

وقد امتص تشرشل هذه المواقف جملة واحدة. وقد اضطر بعد عدة سنوات فيما بعد إلى أن يقدم الدليل إلى لجنة هيل التى كانت تحقق فى أسباب الثورة العربية عام ١٩٣٦م فى فلسطين. وفيما بعد منع اللجنة من طباعة هذه الأدلة، إدراكًا منه لمحتواها المتفجر. والحقيقة، نحن نفهم أنه كان قد تفوه بأكثر أنماط التحيز الصهيونى تطرفًا ضد العرب. وإذ كان تشرشل مصرًا على أن الوطن القومى اليهودى يجب أن يغطى فى النهاية كل فلسطين، فإنه قال إن هذا لم يكن ظلمًا للعرب. فقد قال: «إن الظلم يكون عندما يترك أولئك الذين عاشوا فى البلاد فلسطين لتكون صحراء على مدى آلاف السنين». **وفى رده فى اقتراح بأنه يمكن النظر إلى اليهود باعتبارهم أجانب قاموا بغزو فلسطين فى القرن العشرين، رد تشرشل بأن العرب هم الذين جاءوا فى الأصل إلى فلسطين بعد اليهود، وأن «جيوش الإسلام الكبيرة هى التى سحقت فلسطين». وعندما تم تذكيره بالحضارة العربية العظمى التى امتدت حتى إسپانيا، رد تشرشل بأنه مسرور لأن العرب تم طردهم خارج إسپانيا، لأن ذلك كان فى صالح العالم على حد قوله.** (Cohen 1985: 79).

وفى وقت سابق، كان تشرشل قد صار مثقلاً بمسئولياته الاستعمارية فى العالم العربى لدرجة أنه اقترح أن يتخلص منها كلها. فقد واجه متاعب جمة فى محاولة السيطرة على ملك العراق المعين حديثًا، الملك فيصل، والذى كان قد بدأ يطلب استقلالاً حقيقيًا. ولم يكن لويد چورچ، رئيس الوزراء ليسمع عن هذا. وذكر تشرشل بالاعتقاد الذائع باحتمال اكتشاف احتياطيات كبيرة من البترول فى المنطقة، «**إذا ما رحلنا فقد نجد فى غضون سنة أو سنتين... أننا سلمنا إلى الفرنسيين والأمريكيين بعض أغنى حقول البترول فى العالم**» (Fromkin 1989: 509).

بريطانيا، والصهيونية
وثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ الفلسطينية العربية ضد الاستعمار

وثمة اسم بريطانى آخر شهير للغاية، سوف يصير أيضًا من أبطال الحرب العالمية الثانية، خلف تشرشل فى فلسطين، وهو الفيلد مارشال مونتجومرى. ففى سنة

١٩٣٨م، وصل إلى فلسطين لسحق الثورة العربية ضد الحكم البريطانى والدفاع عن المساندة البريطانية للمستعمرة الصهيونية التى كانت تتوسع بسرعة. **كان موقف مونتجومرى من العرب يتفوق على موقف تشرشل بكثير. فقد أعطى لرجاله أوامر بسيطة عن كيفية التعامل مع الثوار: اقتلوهم خصوصًا «لأنهم عصابات من اللصوص المحترفين» كما نصت كلماته** (Seveg 2000: 432). **لقد كان مونتجومرى مشغولاً بالكيفية التى كان البريطانيون قد خسروا بها معظم أراضى إيرلندا. وكان يظن أن هناك تنازلات أكثر من اللازم قد قدمت لمنظمة شين فين الإيرلندية. لقد كانت الأوامر اليومية هى طمس الهوية القومية بلا رحمة.**

وهكذا، أمر بأن أى فلاح يتم القبض عليه مرتديًا الكوفية الفلسطينية، التى يعود أصلها كرمز للمقاومة فى هذه الثورة، يجب أن «يوضع فى قفص» (Swedenburg 1995: 34). **وقد اضطرت السلطات السياسية البريطانية إلى كبح جماحه.**

كان وضع العرب فى أقفاص فكرة واحدة، وكان تقييد أرجلهم بالسلاسل فكرة أخرى. وقد ترك لنا السير رونالد ستورس، الحاكم البريطانى السابق فى القدس، تأملاته الداخلية فى العقلية الاستعمارية البريطانية فى سيرته الذاتية. كان ستورس يلعب التنس عندما قام الصبى العربى الذى يجمع الكرات «باصدار خشخشة غريبة. وعندما نظر مدققًا اكتشف أنه هو وزميله فى الناحية الأخرى من الملعب كانوا من المحكوم عليهم بمدد طويلة، وكانا مقيدين فى أعقابهما بالسلاسل، وكان ضابط البوليس المحلى قد أرسلهما من السجن لكى يقوما بجمع كرات التنس (Storrs 1939: 446).

وثمة ضابط كبير فى الجيش البريطانى فى فلسطين، هو أوردى وينجيت، الذى عرف أحيانًا باسم «لورنس اليهود». كان ينظم اليهود للخدمة العسكرية، وقد تخطى أكثر من أى ضابط آخر الخط المزعوم بين المصالح البريطانية والمصالح الصهيونية. وقد أعلنت وزارة الدفاع الإسرائيلية بعد موته بسنوات عديدة، أنه قدوة فى دوره، وأبرزت تأثيره على «عقيدة القتال» فى الجيش الإسرائيلى. (Seveg 2000: 430).

لقد كون ما كان فى حقيقته جيشًا خاصًا، معظمه من اليهود، كان يطارد «الإرهابيين» ليلاً. هذه «الكتائب الليلية الخاصة» كان لها واجب حيوى ورمزى

مطلق، حماية السكك الحديدية وأنابيب البترول، التى كانت تمتد من كركوك فى العراق إلى ميناء حيفا الفلسطينى. ولم يكن وينجيت غامضًا فيما يتعلق بالأهداف السياسية الأوسع. لقد كان كما قال «يرسى أسس جيش صهيون» (Marshall 1989: 42).

وهناك الكثير من القصص المفزعة عن «الكتائب **الليلية الخاصة**» والتى تشبه حقًا أنشطة الجيش الإسرائيلى اليوم فى الضفة الغربية وغزة. **فقد كان الضرب والقتل العشوائى فى القرى العربية يتم فجأة ودونما تحذير. وكانت المحاكمات الهزلية والمحاكم الهزلية تعقد فى القرى بدافع من النزق الخيالى المفاجئ، ثم تتلوها الإعدامات. وكان كثير من أفراد قوات وينجيت يظنون أنه مجنون. وليس من الصعب أن ندرك سبب ذلك. فقد كان لديه هوى إلى دسائس الاستفزاز. ففى إحدى المناسبات أراد من جنوده اليهود أن يتزيوا بزى العرب ويذهبون إلى السوق العربى فى حيفا ثم يبدأون فى إطلاق النار** (Seveg 2000: 431).

وعلى أية حال، من الصعب أن نفصل تجاوزات وينجيت عن الجهاز القهرى البريطانى الأوسع فى التعامل مع الثورة. **فقد كان تعذيب المشتبه فيهم أمرًا عاديًا. وتم اعتقال الآلاف إداريًا دون محاكمة فى معسكرات خانقة الزحام دون الحد الأدنى من الرعاية الصحية. وفيما بين سنة ١٩٣٨ وسنة ١٩٤٩م كان يتم إعدام عربى واحد أسبوعيًا على الأقل** (Segev 2000: 417).

والأكثر من هذا، أن رواد مبدأ العقاب الجماعى على قرى بأسرها، والذى يعشقه الجيش الإسرائيلى، كانوا هم البريطانيين. وهناك طبيب بريطانى، اسمه إليوت فورستر، **وثَّق فى يومياته عملية تمت فى حلحول، وهى قرية قرب الخليل، فى مايو سنة ١٩٣٩م، فقد تم جمع الفلاحين فى حظائر مفتوحة واحدة للرجال وأخرى للنساء، أثناء موجة حارة، وحرموا من الطعام والشراب. وسمحوا للنساء بترك الحظيرة بعد يومين، ولكن كثيرًا من الرجال تم احتجازهم لفترة أطول كثيرًا، ومات عشرة على الأقل. ويختم فورستر بأنه ربما كان بوسع البريطانيين أن يعلموا هتلر شيئًا أو شيئين عن إدارة معسكرات الاعتقال** (Seveg 2000: 421-2).

ولا ينبغى لنا أن ننظر إلى وينجيت على أنه استثناء فى الطريقة التى أدمج بها الجنود البريطانيين والصهاينة المسلحين فى نفس الوحدات العسكرية. لقد كانت السلطات البريطانية مضطرة أمام الثورة العربية إلى زيادة قوة الشرطة الاستعمارية. وتم تجنيد آلاف من المستوطنين اليهود. ولم يتأخر الزعيم الصهيونى، موشى شيرتوك، فى الخروج باستنتاج أن الجيش اليهودى فى المستقبل سوف يعتمد على ما يحرزونه من نجاح. (Segev 2000: 427). بل إن البريطانيين، فى الحقيقة طلبوا من زعماء الصهاينة أن يشاركوا فى حمل عبء مرتبات رجال الشرطة وأن يدفعوا تكاليف الزى الرسمى! وتم تكليف شركة سوليل بونيه للبناء، والتى أسسها الهستدروت خصيصًا لتسهيل الاستعمار الصهيونى، بإقامة سور من الأسلاك الشائكة على طول الحدود الشمالية وكذلك بناء أقسام شرطة جديدة (Seveg 2000: 428-9).

الثورة

تغض كتب التاريخ الصهيونية النظر عن الثورة العربية الفلسطينية. وهم يرجعون صدى رفض مونتجومرى الذى يشوبه الازدراء للوطنيين الثوار باعتبارهم رجال عصابات قتلة. ولكنهم فيما بينهم عرفوا الحقيقة وكانوا على استعداد للاعتراف بها أحيانًا. والواقع كان زعيم الجناح اليمينى الصهيونى، چابوتنسكى، معجبًا بالزعيم الفاشستى موسولينى الذى صك العبارة المشئومة «الحائط الحديدى» فى عشرينيات القرن العشرين، لكى يتعامل مع الانتفاضة الحتمية للقومية الفلسطينية. كان الحائط الحديدى تعبيرًا مجازيًا عن القوة العسكرية المهيمنة التى سوف يحتاجها الصهاينة لكسر إرادة القومية الفلسطينية. كذلك أعاد چابوتنسكى مبدأ هرتزل القائل بأن المستوطنين اليهود الأوروبيين يجب أن يفهموا أنهم أرقى ثقافيًا من السكان الوطنيين الأصليين، وأنهم طليعة الحضارة الأوروبية. وقد قال آڤى شلايم، المؤرخ الإسرائيلى المعارض، فى كتابه الفذ The Iron Wall، كيف أن كل الزعماء الإسرائيليين تقريبًا، لا سيما ما يسمى الجناح اليسارى من أمثال بن جوريون، ثم رابين فيما بعد، قد وافقوا على فلسفة «الحائط الحديدى» التى قال بها چابوتنسكى. فقد شهد بن جوريون ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م. ولم يكن يساوره شك فى أنها حركة وطنية مشروعة. ولكن هذا الاستنتاج

لم يؤد سوى إلى زيادة عزمه. فقد جهزته لإجراءات فرض الإبعاد الإجبارى للعرب من الدولة اليهودية فيما بعد. (Swedenburg 1995: 14).

ومع هذا، كان موقف الصهيونية الرسمى مستنكراً للثورة. وهى لا تظهر فى كتب التاريخ التى تدرس فى المدارس الإسرائيلية. وينطبق هذا على أى مكان سيطرت فيه إسرائيل على تدريس التاريخ لتلاميذ المدارس الفلسطينية. فمنذ سنة ١٩٦٧م منعت إسرائيل حرفيًا آلافًا من الكتب فى الضفة الغربية وغزة. بيد أن إسرائيل لم تستطع أن تستأصل الذاكرة الفلسطينية. وفى السنوات القريبة وصلت العلاقة بين التاريخ والذاكرة إلى حد تشكيل بُعد جديد حقًا فى البحث العلمى. وعلى الرغم من أن إسرائيل بذلت أقصى ما فى وسعها، فإن الذاكرة الفلسطينية أفادت أيضًا من هذا الشكل الإبداعى فى البحث.

إذ إن كتاب سويدنبرج الذى يحوى مقابلات بارزة مع الباقين ممن شاركوا فى الثورة والذى نشر فى ثمانينيات القرن العشرين، يُعدُّ مثالاً يحتذى فى الموضوع. وبينما لا نستطيع نحن أن نقيم العدالة هنا، فإننا نستطيع على الأقل أن نؤكد على أن «الثورة الكبرى» كانت أهم انتفاضة ضد الاستعمار فى الشرق العربى فى فترة ما بين الحربين (Swedenburg 1995: 21).

لقد كانت الثورة حتمية ويكمن سببها النهائى فى الحماية البريطانية لتوسع الهجرة اليهودية التى تضاعفت ما يقرب ست مرات فى ثلاثينيات القرن العشرين. فقد كان اليهود يشكلون تقريبًا ثلث السكان الفلسطينيين عند اندلاع الثورة (كان عدد اليهود ٦٥ ألفًا سنة ١٩١٧م، ووصل إلى ٣٨٤,٠٧٨ نسمة سنة ١٩٣٦م) (Gilbert 1998: 47-80).

ولم يستطع الفلاحون الفلسطينيون أن يفهموا لماذا كان ينبغى أن تستخدم أرضهم ملاذًا لليهود الأوروبيين الفارين من اللاسامية فى أوروبا. إنهم لم يكونوا هم يهود الأراضى العربية الذين كانوا جيرانهم على مدى القرون. لقد رأى الفلاحون ما رآه چابوتنسكى بالضبط: مستعمرًا أوروبيًا، فضلاً عن أنه محمى بالقوة المسلحة للإمبراطورية البريطانية. وكانت لدى الفلاحين الشجاعة لإعلان الحرب على الإمبراطورية البريطانية لكى يحموا أرضهم، اتساقًا مع ذلك التراث العظيم الذى تعرفنا عليه من قبل فى جبل النار.

النظر بعيون فلسطينية

لقد استغرق الأمر زمنًا طويلاً حتى يُقنع سويدنبرج على حسين بالحديث معه (Swedenburg 1995: 107-9). **وقد وضع المحارب القديم شرطًا للمقابلة، وهو يجب على سويدنبرج أن ينشر أسماء رفاقه الذين قتلهم البريطانيون بعد أن أطاح لغم أرضى زرعه الفلاحون بتسعة جنود. ثم وصف على المذبحة عندما انتقم الجيش البريطانى من قرية بأسرها. وقد احتفظ على بقائمة الأسماء لمدة أربعين سنة. وكان قد انتظر كل هذا الوقت لكى ينال الاعتراف لهؤلاء الشهداء المجهولين. لقد كان مبدأ وحالة واجهها سويدنبرج مرات ومرات بين المحاربين الفلاحين القدامى. لقد عرفوا أن شيئًا مهمًا حقًا قد حدث. ولكنه على نحو ما ضل مكانه الرسمى فى تلك الوسيلة التذكرية التى تسمى التاريخ المكتوب.**

لقد وصف على نفسه بأنه مسلم وشيوعى فى الوقت نفسه وأصرَّ على أنه لم يكن هناك ثمة تعارض. وعلاوة على ذلك، بينما كان على واحدًا من أكثر زعماء الفلاحين المحليين السابقين الذين قابلهم سويدنبرج حنكة، فإن إصراره على أن القرى كانت تشكل العمود الفقرى للمقاومة، مع قيادة عسكرية جسورة ولكنها مرتجلة مع مبادرات شجاعة، هو الذى ساد جميع الروايات. والقصة التى لم تُرو هى أن البريطانيين ـ دعك من الصهاينة ـ كانوا يواجهون خطر فقدان السيطرة على الريف. وقد تلت ذلك حالة من الجمود العسكرى العنيف، ولم يكن من الممكن كسرها إلا بتنازلات سياسية خطيرة من السلطة الحاكمة. **وعلى حد تعبير سجل بريطانى رسمى: «لم يكن الجنود البريطانيون ذوو الأحذية الثقيلة أندادًا للمواطنين ذوى الثياب الخفيفة الذين كان يمكنهم، فى أية لحظة ــ أن يسقطوا أسلحتهم ويصيرون فلاحين ورعاة ماعز مسالمين»** (Swedendburg 1995: 126).

وقد كانت لدى على حسين بيتام قائمة أخرى من الأسماء فى رأسه، من أبناء الأعمام والأعمام والأخوال وغيرهم من الأقارب الذين قتلوا بعد ما يزيد على أربعين سنة من هذا التاريخ، خلال المذبحة التى قامت بها إسرائيل فى معسكرات اللاجئين فى صابرا وشاتيلا ببيروت سنة ١٩٨٢م. ويروى سويدنبرج وزميل فلسطينى له: «شعرنا بالتوقير والإجلال لهذه الروح الجامحة التى تحترق بهذا التألق داخل هذا الرأس

صغير الحجم الذى كرر أسماء الموتى، كما لو كان ذلك الفعل يمكنه أن يقبض على عاصفة التقدم».

وطرأ على بال سويدنبرج فجأة اقتباس قال فيه: «مصيبة واحدة ما تزال تكوِّم الحطام فوق الحطام وتدفعه أمام قدميه». (Swedenburg 1995: 137). لقد كان مواتيًا تمامًا بالنسبة لعلى، ومع ذلك فإن الاقتباس مأخوذ عن الفيلسوف اليهودى، والتر بنيامين، عندما كان يتوقع الهولوكوست.

***

obeikandl.com